14 صفة جيل التأسيس

حقيقتان بازغتان تصفان الداعية المسلم دومًا، وفي ظلالهما يعيش سعيدًا.

إنه :

لا الأرض تحده.

ولا العذاب يرهبه.

يرددهما مع المرددين.

نحن عصبة الإله دينه لنا وطن

نحن جند مصطفاه نستخف بالمحن

إنه يعمل أنى هاجر وطرد، لا يعشق ترابه، ولا يضيق ضمن حدود أوهم الاستعمار غيره أنها حدودهم، ويتآخى مع كل بني الإسلام، فإن لم تكن الهجرة وكان السجن، كان سجنه سياحة لروحه وفكره، وإذا شنق كان هبوط الحبل به علوا ينقله إلى منزل جميل كريم.

الداعية (ينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمنا، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرة لا مفر منها. وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأسًا، إن الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار، وشتان شتان، وهو يسمع نداء ربه الكريم:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾

[آل عمران] [1].

والجاهليون يغفلون عن هذه الحقائق التي ينطلق منها دعاة الإسلام، فيشردونهم، ويضيقون عليهم، لكنهم يخسرون كل جولة في النهاية، بما صادموا من الفطرة التي جبل الله عليها الدعاة إليه.

وكل واحدة من هاتين الحقيقتين هي الوجه الآخر للحرية والأمل. الحرية التي ترفع الدعاة عن ثقل المطامع، والأمل الذي يدفعهم إلى البذل.

فإن شئت أن تقول: إن هاتين الحقيقتين نتاج لهذه الحرية ولهذا الأمل، كان لك ذاك.

وإن شئت أن تقول: إنهن أربع: الحرية، والآمال، وهاتان لم تعد الصواب، وإن لبين يديك في تاريخ الدعوة المثل من بعد المثل.

درس من القاضي الزبيري

ولم يشحن تاريخ حركة بالأمثال مثلما شحن تاريخ الحركة الإسلامية قديما وحديثا، ولكثرتها خفي بعضها على الناشئة الجدد.

وفي الخفي ما هو أروع من الجلي، ومصداق ذلك قصة تصديق الداعية القاضي محمد محمود الزبيري / لأقواله ووعوده وعهوده بسيرة عملية.

نشأ في بقية الإرث الموروث من الإيمان اليماني والحكمة اليمانية التي أقرأ النبي ﷺ بها لأهل عصره ممن باليمن، وعزم على الإصلاح، ووثب وثبة خير سنة ١٩٤٨ مع الواثبين.

---

(١) معالم في الطريق / ١٦٨.

لم تكن وثبته تلك وثبة انتقام، ولا حب تسلط، ولكنه نظر النظر البعيد، ورأى أن لابد من تغيير يحفظ اليمن في يد الإسلام قبل أن تمد له يد تغيير تقلد موجة الشرور، وتحاكي انقلابات الآبقين.

ولكن شاء الله ما لم يحسب الزبيري وصحبه، فهاجر طريدا متنقلا في البلاد.

لقد فقد جهدًا، وضيعت عليه فرصة، لكنه احتفظ بملك حرية قلبه، ففخر بما ملك وازدهى، واستعلى وتباهى وأنشأ يقول:

خذوا كل دنياكم واتركوا ... فؤادي حرا وحيدًا غريبا

فإني أعظمكم دولة ... وإن خلتموني طريدا سليبا [1]

إن دولته القلبية الحرة لأعظم من كل دولة أرض كان يمر بها تقام على تزوير، أو دولة أخرى انقلب عليها، صدقت، لكنها تورطت في تقصير حق عليها به قول التغيير.

إنه فخر ولا ككل فخر تحمله هذه الأشطر.

إنه فخر داعية يتجاوز أن يكن مجرد فخر بحرية القلب.

إنه عهد عمل صاغه في كلمات من لغة الدعاة.

وللدعاة في عهودهم سمت أخذوه عن الزاهد جعفر الخلدي البغدادي، وسنة في الوفاء ابتدعها لهم، من حين أن قال:

(ما عقدت لله على نفسي عقدًا فنكثته) [2].

---

(١) مجلة (المسلمون) ٢/ ٨٢١.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٢٢٩.

بهذه النفس كان الزبيري، أديب اليمن الفذ، يستعد استعداد من يملك الحرية، ويحركه الأمل، ويتعالى على حدود الأقطار، ويستخف بالمحن.

خصال أربع منحته الصبر في فترة الصبر، ووهبته التصميم على المناداة بالإسلام في فترة العمل، فأسس الحزب الإسلامي في اليمن المتصارع يوم كان وزيرا للمعارف والتربية بعد الثورة في الستينات، فتلقى رصاصات في صدره نقلته إلى ما نحسبها شهادة له.

حسبوا أن الرصاصات ستنهي عمله، فكانت رصاصات قدمت لظهور المد الإسلامي الواعي الكفيل بإعادة السعادة إلى اليمن الباكي المعروف بالسعيد.

حرص على البيع

ترى: أكان الزبيري يجهل أن جهره سيجلب الرصاصات إلى صدره؟

كلا، لكنها كذلك تضرب اليمن الأمثال....

إنها سنة الدعاة في الحرص على الموت...

لقنهم إياها خالد بن الوليد ا لما وصف من معه ممن فتح بهم العراق، فغدت شرطا في كل داعية، في كل جيل.

قال للفرس:

(قد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة) [1].

وصاغها لهم عبد الله بن المبارك إمام الحديث، وبطل الجهاد، في بيتين كان يتمثل بهما كلما خرج لصالحة فيقول:

بغض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي- بما ليست له ثمنا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٤.

إني وزنت الذي يبقى ليعدلـــه ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا [1]

لا تشتغل بترهات

فكذلك قاموس لغة الدعاة، يتطور ويتنامى، ويضيف كل جيل منهم جديدًا إلى اصطلاحات صفاتهم.

وضع بعضهم كلمة الحرية في الاستعمال لما قال:

* كـــن أبـــدًا حـــرًا أبيـــا *

وأضاف آخر الأمل لما قال:

* لنـــا غـــد والأمـــل *

وزاد الثالث:

* دينـــه لنـــا وطـــن *

* ونســـتخف بـــالمحن *

وقبلهم، وضع خالد اصطلاح: (الحرص على الموت).

وأضاف ابن المبارك: (بيع النفس).

ويطالعنا الآن الزاهد رويم باصطلاح لما طلب منه صاحبه أن يوصيه فقال:

(هو بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات) [2].

والأمر كذلك والله.

لا تعود هذه الأمة إلى إسلامها إلا بدعوة تؤسس ابتداء على بذل الروح، وإلا فإن الأماني مما دون ذلك، والتعويل على احتمال سماع أئمة الكفر لوعظنا، واللغة الدبلوماسية، لا تعدو أن تكون ترهات فحسب.

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٦.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي/ ١٨٣.

ويا لها من صرخة في المشرق كان يمد ابن الجوزي بها صوته على شاطئ دجلة ببغداد، ويهتف:

(أول قدم في الطريق: بذل الروح....

هذه الجادة، فأين السالك؟) [1]

ولا زالت أجيال فتيان صباح الوجوه في كل قطر تجيبه أن: نحن السالكون، ألا قد بلغت، وإنا لنشهد.. بلغتنا فانتظمنا وخرجنا عن التهور، وهاهي أرواحنا ملك التخطيط الموزون، نبذلها متى شاء بإذن الله.

وفي زمنها كانت تجاوبها فصاحة مغربية تنطلق من لسان (لسان الدين ابن الخطيب) تؤكد أن: نعم. إنَّ

طريق القوم مبنية على الموت

وهي (**قطرة الدم**) أيضا، كذلك سماه داعية بسيط من الرعيل الأول، لا يحمل شهادة، ولا له اسم مشتهر، فقال لأميرة بلسان الإيمان:

(إن قطرة الدم لا زالت غالية على المسلمين، وما دامت قطرة الدم غالية فإنهم لن يصلوا إلى شيء، لأن ثمن العزة والحرية قطرة الدم فقط) [2].

وهكذا تكون قوة بلاغة لسان الصدق وإن كان صاحبه لا يعرف الجرجاني ولا الجاحظ.

وهي الحدة والجرأة عند محمد إقبال: قرن الثنتين في بيت فقال:

حديد: إذا ما طغى باطل جريء لدى المعرك المؤمن [3]

---

(١) المدهش لابن الجوزي/ ٢٩٩.

(٢) مذكرات الدعوة والداعية/ ١١٤.

(٣) ديوان ضرب الكليم/ ٢٩.

وهي التضحية في اصطلاح وليد الأعظمي حين يقول:

هـــو الإســـلام تضـــحية يريـــد

وعند آخر: لن تكون العظمة مع هوى العيش. ويصوغها نشيدًا يردد:

إن نفســـا ترتضى الإســـلام دينـــا

ثـــم تـــرضى بعـــده أن تســـتكينا

أو تـــرى الإســـلام في أرض مهينـــا

ثم تهوى العيش نفس لـن تكونـا في عـداد المسـلمين العظـماء

ويجمع داعية فقيه كل هذه الاصطلاحات في فتوى فقهية واضحة بعيدة عن تهمة فرط الحماسة، يقول فيها:

(الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفائي يجب أن يكون في الأمة، ولكن إذا كان الحاكم ظالما باغيا لا يتسع صدره لسماع النصيحة إلى درجة أن يقتل من يأمره وينهاه، فإن هذا الفرض يسع الفرد تركه، لا الأمة، ولكن من المندوب إليه، بالنسبة للفرد، القيام بهذا الفرض ولو أدى ذلك إلى موته، يدل على ذلك الحديث الشريف: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق لسلطان جائر فقتله" فيفهم من هذا الحديث: أن من المندوب إليه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو أدى ذلك إلى قتل الآمر. ولا يعترض علينا بأن إلقاء النفس في التهلكة لا يجوز، وهذه تهلكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] لأن الاستشهاد في سبيل الله ليس بالتهلكة، وإنما هو ضرب من ضروب الجهاد،

وما يترتب عليه من تقوية نفوس المحقين وخذلان المبطلين وإيقاف الظالمين عند حدهم، فحسن لهذه المعاني، وندب الشرع إليه)[1].

المراحل الثلاث

إن هذه الفتوى، والثروة اللغوية التي في قاموس الدعاة، وأقدام الهول الموصوفة من قبل، وهذا المثال اليماني، وعشرات الأمثلة في التاريخ الحديث والقديم، لا تعني الاستعجال، ولكنها تثبت بندا في قانون التربية الحركية للقاعدة الصلبة، عنوانه: غرس الاستعداد وشرح التبعة منذ البداية.

الاستعداد النفسي لبذل الروح وقطرة الدم عند الحاجة، فليست الدعوة جمعية خيرية تقنع بالقليل.

والاستعداد للتعب اليومي، فدون غاية الدعوة رحلة طويلة، وليست هي مجرد تصفيق في احتفال أو استحسان لمقال.

والاستعداد بإنفاق السرور، وتحمل ثقل مصائب الأمة، ابتداء بقضية فلسطين، وانتهاء بمآسي التنصير في إندونيسيا، ومذابح المسلمين في البنغال والفليبين.

وهذه الثلاث هي وجه للمرحلية التي ذكرها أحد الوعاظ قديما في قوله:

(يا هذا: أول الطريق سهل، ثم يأتي الحزن.

في البداية: إنفاق السرور

وفي التوسط: إنفاق النفس).

---

(١) مجلة التربية الإسلامية ٥/ ٧٦٠.

وهذا يقتضي أن تكون هناك نهاية أيضا، وأن يكون في النهاية ما هو أكبر من إنفاق النفس، ولم يذكره، لكن الدعاة، يميزونه في صورة لعلها هي (إنفاق ما بعد النفس) وأظنها صورة الشوق الشديد إلى الحوريات السبعين، فهو اجتماع الشوق بدرجة تنسى الداعية طعم الراحة، ولذة الطعام، وأنس الزوجة، وتجعله هائما راكضا بلا التفات.

ومن هذا الوصف القديم للمرحلية، الذي جاء على لسان الواعظ، ومن وجهها الآخر الذي رسمته الاستعدادات الثلاث يتضح الوصف الحركي الحديث للمرحلية المتدرجة المتناسبة مع القوة والواقع المحيط، المنسابة مع انسيابية سير الحاضر نحو المستقبل، وانسيابية الاقتران الكامن في فقه الدعوة بين تفقهنا الشرعي، وخبرتنا التجريبية.

حديث من استراح

هذا، كما يقول الإمام أحمد، أو هو حديث ذي العقل المستريح.

كان الإمام أحمد بن حنبل / داعية نبها يقود تجمع دعاة من أهل التضحية والبذل، وكان يعرف قيمة ثبات الداعية في المحن، وأثر عدم إجابته لما يدعونه إليه من القول بخلق القرآن في تثبيت المسلمين، فمن ثم لم يجد لمن لا يفهم معاني لغة الدعاة واصطلاحات قواميسهم غير اصطلاح:

أصحاب العقول المستريحة

إنه لا يكرههم، ولا يزدريهم، بل يحبهم ويحرص عليهم، ويستفيد من خيرهم مهما قل، ولكنه لا يدخلهم صفه ما دامت عقولهم تتمتع بالراحة، ولا تحركها مصائب المسلمين.

قال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطي:

(دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي:

يا أبا عبد الله: عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور.

- كأني أسهل عليه الإجابة:

فقال لي أحمد بن حنبل:

إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت)[1].

وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم، وما أكثر من يفهم الإسلام ثم يحدث نفسه بمثل هذا، فيجبن وينزوي ولا يشارك الدعاة سيرهم، وإنما هو حديث من استراح، كما يقول الإمام أحمد، وأما من لذع واقع الإسلام قلبه فأنى له الراحة؟ وأنى يدع لصبيانه وزوجه مجال تخذيله وتقييده عن الاندفاع مع الدعاة؟ وهل الموت إلا في آجال؟

هذا داعية المنصورة بمصر- (صلاح الشربيني) /، لم يمته رصاص الإنكليز لما قاتلهم على قناة السويس، ولكنه مات على سرير مستشفى بعد أيام الحج بمكة.

وهذا داعية البصرة قيس القرطاس /، لم يمته عذاب السجن، الرهيب، ولكنه مات مخنوقا بالغاز في حمام بعد خروجه من السجن بأيام.

وهذا داعية غزة عمر أبو جبارة /، صاحب الدعوة منذ صباه ودخل السجن فلم يمته تعب البذل اليومي ومات من سقطة بسيطة.

وإن عهد الدعوة لن يقدم أجلا، ولكنه يرفع إلى الفراديس. فإن لم يكن المسلم مع أحمد، أو مع ورثة أحمد اليوم، وقعد لعذر أو شبه عذر، فإنه مطالب بالأسف وازدراء نفسه على الأقل، ألا يكون مع القوم العاملين، كما قيل للزاهد الثقة بشر بن الحارث الحافي يوم تعذيب أحمد:

(قد ضرب أحمد بن حنبل إلى الساعة سبعة عشر سوطًا

---

(١) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ١/ ٤٣.

فمد بشر رجله، وجعل ينظر إلى ساقيه ويقول:

ما أقبح هذا الساق ألا يكون القيد فيه نصرة لهذا الرجل) [1].

مع أنه شهر وأذاع حبه لأحمد، لكن الخليفة تركه لشهرته بالزهد وحب العامة له، وخاف أن يوسع دائرة النقمة عليه.

فالمؤمن الصادق إن عذر نفسه وأفتاها بالتخلف، لنوع ضرورة أو ضعف يدريه من نفسه أو شبهة عرف ما يوجبه ذلك من التواضع وترك التطاول على الدعاة، ويظل يتهم نفسه في اجتهاده، ويمنح الصابرين المقتحمين لسانا جميلا يكون لهم، فهي نوع سلوة وراحة. وأما أسير هواه فيجادل ويثرثر، ويقذف لسانه بكل لفظ صلب، ألا يوصف بتخلف، فيجمع بجداله نقصا إلى نقص، والعياذ بالله؟

ولن يزول المتخلف المستريح عن منازل الملومين حتى يفقه الوصف الحركي، وينطق بلغة الدعاة، وينشد معهم ينقد على نفسه حاله الأول:

برئ الإسلام من شاك مضيم ... لا يراه غير صوم وصلاة

ذروة الدين جهاد في الصميم ... فلنجاهد، أو لتلفظنا الحياة

فهذا هو القول الموجز والحكم الأخير في حالة المسلمين اليوم في جميع أقطار الإسلام.

إما جهاد وتعاهد على إرخاص قطرات الدم.

وإما أن تلفظهم الحياة، ويستبدل الله -تعالى- بهم آخرين، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ولا يغريهم جمال نساء ومال، ولا يرهبهم طغيان طاغية، واستئساد جاهلية.

---

(١) مناقب أحمد، لابن الجوزي/ ١١٩.

نعم.... هذا أو لقب ذي العقل المستريح.

هذا.... وإلا فإنها الترهات.

* * *